موتيف الموت والشهادة في أشعار سميح القاسم

الدكتور نعيم عموري

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية و آدابها

بجامعة شهيد چمران اهواز

The repeated images of the death and martyr in the poems of Samih Al Qasim

phd. Na'eem A'amori

Asst, proph in Arabic language and it`s literature section of Shahid Chamran University in Al Ahwaz

The martyr is the most human chill and the resisted love of human along the history, it is the in his fighting journey according with the ideology that he believed in ,where our poet Samih Al Qasim wrote poems about martyr and it became his repeated image in his poetry ,and he motivated many protesters for the martyr by his poems ,the search points to study the ideology of the poet and his thinking about martyr ,and it seems by his poems and the repeated images of the martyr ,we notice his beautiful look to the martyr and this strengthens the resistance soul for his people ,where he considers that martyr for Palestine like a commitment in the political ,patriot ,ego, and national terms.

It is cleared after the study the repeated images of martyr that the poet stood on this issue on two levels, ego and communal, where in the national, patriot and political issues ,he cleared his beautiful martyr image and its evidence to describe the bitter colonial reality .

Samih found the opposition and the enthusiasm motives through the meaning of martyr , where we see a complete harmony among the patriot ,national, political and humanity issues in the meaning of the martyr .

The martyr for the poet was like the real life ,as we see the beautiful image of the martyr in Islamic way .

La motivation de la mort et de martyre dans la poésie de Samih Al-Qasim

Dr. Naim Amouri: Prof. adjoint au département de la langue arabe et ses littératures…
Shahid Chimran : L'Université- Ahwaz…

Le martyre est l'espoire le plus grand chez l'homme et la passion de l'homme resistant à travers l'histoire, il existe dans son chemin de la lutte conformement au doctrine qu'il croit, à travers lequel a chanté notre poète **Samih Al-Qasim** jusqu'à ce qu'il est devenu son style poétique, où il en a exhorté la plupart des resistants à obtenir le martyre. La recherche vise à étudier l'adiologie du poète dans ses perspectives vers le sujet de martyre, nous en voyons encore sa vision esthétique et notons que le l'espoir domine le sujet de martyre et le martyre, et cela renforce l'esprit de la résistance chez son peuple quand ce people palastinien croit que le martyre est un engagement dans les dimensions politiques, patriotistes, nationalistes et individuelles. On voit après avoir étudié le sujet de martyre qu'il a arêté sur ce point par deux niveaux: individuel et collectif, c'est que sa vision esthétique dans les questions politiques, nationalistes et patriotistes a dévoilé dans le sujet de martyre et ses implications dans l'expression de la réalité amère de l'occupation. **Samih** a trouvé par la notion de martyre les signes de la fermeté et de la ferveur où nous voyons une pleine harmonie entre les questions patriotistes et politiques, nationales et humanitaires dans le sujet de martyre. Le martyre alors était pour le poète comme la vie, et nous voyons aussi la vision esthétique de ce sujet selon la perspective islamique.

بسم الله الرحمن الرحيم

الملخّص

إنَّ الشهادة هاجس الإنسان الأكبر وعشق الإنسان المقاوم طيلة التأريخ، هي في مسيرة كفاحه انسجاماً مع الإيدئولوجيا التي يؤمن بها؛ فقد تغنّى شاعرنا المرحوم سميح القاسم بالشهادة وأصبحت موتيفه الشعري، وحثّ الكثير من المقاومين بأشعاره على الشهادة. يهدف البحث الى دراسة إيدئولوجيا الشاعر في نظرته نحو الشهادة وكما يبدو من عطائه الشعري وموتيفه للشهادة نلاحظ نظرته الجمالية للشهادة والشهيد ونلاحظ الأمل يحدو الشهادة والشهيد وهذا يقوّي روح المقاومة عند شعبه فيعتبر الشعب الفلسطيني الشهادة التزاماً في الأبعاد السياسية والوطنيّة والقوميّة والذاتية. اتّضح بعد دراسة موتيف الشهادة أنّه وقف عند هذه المسألة على مستويين: ذاتي وجماعي، ففي القضايا السياسيّة والقوميّة والوطنيّة، انكشفت رؤيته الجمالية في موتيف الشهادة ودلالاتها في التعبير عن واقع الاحتلال المُرّ. أوجد سميح دلالات الصمود والحماسة من مفهوم الشهادة، فنرى انسجاماً كاملاً بين القضايا الوطنية والسياسية والقومية والإنسانية من مضمون الشهادة. فكانت الشهادة بالنسبة للشاعير بمثابة الحياة، كما نرى الرؤية الجمالية للشهادة من منظور إسلامي.

المقدمة

في الآونة الأخيرة اتجه الشعر المعاصر العربي إلى اتجاهات فكرية متعددة وهذه الاتجاهات غيّرت بعض مسار الشعر وتداخلت العلوم ببعضها الآخر وعلى هذا الاساس إنّ الموتيف وهو ركيزة علمية في الفن والرسم دخل في عالم الأدب والشعر؛ التكرار يُقارب الموتيف في البلاغة العربية وهو تكرار الفكرة أو اللفظ في الشعر والشاعر يريد من هذا التكرار أعطاء رسالة واضحة لكن بأسلوب التكرار المعنوي أو اللفظي أو بالموتيف، فشاعرنا سميح القاسم استخدم موتيف الموت والشهاة في شعره ويقصد بالموت هو الموت الأحمر أو الأخضر أي:

الشهادة و نراه يتفلسف تارة في الموت و تارة أخرى يتحدث بصورة مباشرة عن الشهادة و مقاومة الأعداء وكما عرفنا سميح من خلال أشعاره أنّه رجل هادئ لكن بركانه الأدبي موقوت ونلاحظ في ديوانه ضجيج يملأ العالم بصراخه و صياحه على الصهاينة المراوغين.

هذا البحث يهدف إلى كشف موتيف الشهادة أو فكرة الشهادة في أشعار سميح القاسم و يدرس الموت المقارب للشهادة على أنّه نوع من أنواع الشهادة عند المقاومين الفلسطينيين وتكون الدراسة على المنهج التحليلي–التوصيفي.

خلفية البحث:

درسَ الباحثون الموتيف في شتى مجالات العلوم الإنسانية وقد أورد بعضهم هذه النظرية في دراسة الفن والأدب، دَرَسَ محمد تقوي والهام دهقان الموتيف الموسوم بـ "موتيف چيست و چگونه شكل می گيرد" وهذه المقالة تمّ نشرها بمجلة "نقد ادبی" في جامعة "تربيت مدرس" هي الفريدة من نوعها في هذا المجال.ومقالة «موتيف نوح (ع) في شعر أديب كمال الدين» لنعيم عموري في مجلة آداب الكوفة في عددها٢٠ عام٢٠١٥م. ومقالة «التراث الدينی فی شعر سميح القاسم شاعر المقاومة الفلسطينية» لمحمد خاقانی ومريم جلائی كتبت في مجله: دراسات فی اللغة العربية و آدابها » ربيع ١٣٩٠– العدد٥، ودرسا فيها التراث الديني في أشعاره. لكن لم أعثر على دراسة حول الشهادة أو الشهيد في أشعار سميح القاسم. يضمُّ ديوان سميح القاسم بالقضايا التي تمتُّ بصلة إلى الشهادة وتحدّث عن الشهيد وجراح الشهداء وصورة الدم فنيّاً حيث جاء برموز ودلالات لاحصر لها واستعان بالمجاز وتشبية دماء الشهداء بالمحسوسات فی كثير من مجالاته. ويهدف هذا المقال الكشف عن دوالّ الشهادة والموت والشهيد في شعر سميح القاسم.

الموتيف لغة و اصطلاحاً:

لم ترد هذه المفردة في المعاجم العربية، أصل الكلمة بهذه الهيئة والإستعمال المتداول فرنسوية وقد دخلت في اللغات العالمية الأخرى. الموتيف لغةً تعني الحركة، الإثارة، الإلحاح والدافع. تستخدم كلمة "الموتيف" في فنون وعلوم مختلفة،

منها: الرسم والنحت والهندسة المعمارية والموسيقى والحياكة والخياطة والتصوير والأدب. والموتيف في الأدب يعني الفكرة الرئيسة أو الموضوع الذي يتكرّر في العمل الأدبي، أو المفردة المتكررة، أو الحافز و الباعث (طه، ٢٠٠٤م: ٢٠٨) تُعرّف كلمة «موتيف» بشكل عام بأنها الجزء المتكرر والمستمر الحامل لمعنى أو قيمة ثقافية، والذي يدخل في تكوين الشكل أو المحتوى لمختلف أنواع الإنتاج الثقافي (الشامي،٢٠٠٧م: ٢٩). في اللغة والآداب الفارسية فقد تُرجِم هذا المصطلح بـ (بن مايه)، أو (درون مايه)، أو (نقش مايه)، وهذه الترجمة لا تدلّ على هذا الجانب لأنّ الأساس في الموتيف هو التكرار، تكرار الفكرة أو المفردة أو المصطلح في أدب الكاتب أو الشاعر، لأنّ الموتيف قد يكون كلمة فعلاً أو إسماً أو أداة، و قد يكون فكرة أو جملة أو تعبير يتكرر في مرحلة ما، عند شاعر أو كاتب محدد، (بلاوي و آخرون،٢٠١٢م:٧٨) ومن أمثلة ذلك في الشعر الجاهلي فكرة "الهامة" وهي روح القتيل طالبةً للثأر، وفكرة الوقوف على الأطلال، والنسيب، والخمر، ووصف المها أو الناقة، أو "الأنا" عند المتنبي، و"حدثني عيسى بن هشام" في مقامات الهمذاني، و"أدركت شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح" في ألف ليلة وليلة، والتأريخ الشعري في عصر الانحطاط، و"الحارة" عند نجيب محفوظ، و"الخمرة" عند إبن الفارض، و"الأرض" عند شعراء المقاومة و شعراء فلسطين و خاصة محمود درويش و صورة "الحجر" في شعر الانتفاضة الفلسطينية.(طه،٢٠٠٤م:٢٠٧)

الموتيف و جذوره العربية:

الموتيف يرادف التكرار في البلاغة العربية وتشير نازك الملائكة إلى هذه الظاهرة؛ ظاهرة التكرار في الشعر العربي وبينت أن التكرار في ذاته ليس جمالاً يضاف إلى القصيدة وإنما هو كسائر الأساليب في كونه يحتاج إلى أن يجيء في مكانه من القصيدة وأن تلمسه يد الشاعر تلك اللمسة السحرية التي تبعث الحياة في الكلمات، لأنه يمتلك طبيعة خادعة فهو على سهولته وقدرته في إحداث موسيقي يستطيع أن يضلل الشاعر ويوقعه في مزلق تعبيري، فهو يحتوي على إمكانيات تعبيرية تغني

المعنى إذا استطاع الشاعر أن يسيطر عليه ويستخدمه في موضعه وإلا فإنه يتحول إلى مجرد تكرارات لفظية مبتذلة (الملائكة،١٩٩٦م:٢٦٣). كما أشارت إلى أنواع التكرار وحصرتها في تكرار الكلمة والعبارة والمقطع والحرف وترى أن أبسط أنواع التكرار؛ تكرار كلمة واحدة في أول كل بيت من مجموعة أبيات متتالية في قصيدة، وهو لون شائع في شعرنا المعاصر، يلجأ إليه صغار الشعراء ولا يعطيه الأصالة والجمال إلا شاعر موهوب حاذق يدرك المعول لا على التكرار نفسه وإنما ما بعد الكلمة المكررة(نفس المصدر،٢٦٨) والموتيف هو تكرار الفكرة التي تحمها هذه اللفظة المفردة الكررة أو العبارة المكررة.

دراسة موتيف الموت والشهادة:

تطرّق سميح القاسم إلى موضوع الشهادة و الشهيد و أنواع الموت في شعره وذلك في إطار الأدب المقاوم لأنّ البيئة الاجتماعية في فلسطين والظلم والاضطهاد والتهجير يسبب ظهور أدب مقاوم يتحدّث عن الشهادة والمقاومة ومن الدوافع لهذا البحث هي الصلة الوثيقة بين الموت والشهادة من جهة و من جهة أخرى نفسية الشاعر ورومنسيته وصوفيته الخاصّة به علاوة على الظروف الخاصة التي تمرّ بها فلسطين حيث يناشد الشعب الفلسطيني في أرضه و شتاته الحرية ويشتريها بنفسه ودمه موتيف الشهادة والموت عند شاعرنا يفضح جرائم العدو الصهيوني حيث سنلاحظ التكرار الكثير لذكر الشهادة والموت في أشعاره مما ينمُّ عن نفس تتطلّع نحو أفق الحرية. فمِن أشعاره: « البيان قبل الأخير ../البيان قبل الأخير عن واقع الحال مع الغزاة الّذين لا يقرأون/لاَ. لاَ تَعُدُّوا الْعَشَرَهْ../يَوْمُ الْحِسَابِ فَاتَكُمْ/وَبَعْثَرَتْ أَوْقَاتَكُمْ/أَرْقَامُهَا الْمُبَعْثَرَهْ/فَلاَ تَعُدُّوا الْعَشَرَهْ.../تَدَفَّقُوا مِنْ مَجْزَرَهْ/وَانْطَلِقُوا فِي مَجْزَرَه/أَشْلاَءُ قَتْلاَنَا عَلَى نَهْرِ الدِّمَاءِ قَنْطَرَهْ/فَلاَ تَعُدُّوا الْعَشَرَهْ../تَزَوَّجُوا دَبَّابَةً/وَأَنْجِبُوا مُحَنْزَرَهْ/وَحَاوِلُوا/وَعَلِّلُوا/وَقَاتِلُوا/وَقَتِّلُوا/كُلُّ شَهِيدٍ غَيْمَةٌ/تَصْعَدُ مِنْ تُرَابِنَا/تَهْمِي عَلَى حِرَابِكُمْ/وَمَرَّةً أُخْرَى وَرَاءَ مَرَّةٍ أُخْرَى/يَعُودُ غَيْمَةً مِنْ بَابِنَا/كُلُّ شَهِيدٍ غَيْمَةٌ/كُلُّ وَلِيدٍ شَجَرَهْ/فَلاَ تَعُدُّوا الْعَشَرَهْ.. » (القاسم،١٩٦٤م:١٢)

في هذا المقطع الشعري يتحدّث سميح عن الكفاح والمقاومة والشهادة فهو يخاطب الجناة ويجعل من منظور الأعداء كل شهيد غنيمة لهم ويتكرر هذا الشطر في القصيدة و من ثمّ ينتقل موتيف الشهيد نحو المجاهد الذي سيستشهد في سبيل الوطن: « يشاؤك صمتك: وعدا/ يشاؤك صوتك: رعدا/ يشاؤك وجهك: نورا/يشاؤك روحك: ليلا/يشاؤك ورد الحديقة: طلعا/يشاؤك كهف الجبال: صديقا/يشاؤك سخط البراكين: صنوا/يشاؤك قلبك: سهلا/تشاؤك زيتونة الدهر: حلما/يشاؤك صخر التلال: رفيقا/تشاؤك سنبلة الحب: حقلا/يشاؤك قلب التراب: شهيدا/يشاؤك أهلك: عيدا/وماذا تشاء سوى ضجعةً الموت حرا طليقا/حزينا. أشد من الموت حزنا/أشد من الماء والموت حزنا؟» (نفس المصدر:١٤)

في هذا النص يوجّه الشاعر الخطاب نحو الشهيد والمجاهد الذي سيصبح شهيدا و يخاطبه بالوعد/ الرعد/ النور/الطلع/ هذه التسميات تنمّ عن أمل وسير نحو مستقبل مزدهر ألى أن يذكر الشهادة و ينادي الترابُ ذلك المجاهد؛ يشاؤك قلب التراب:شهيدا، فموتيف الشهيد والشهادة يندمج مع تعابير جديدة كالعيد، ففي فلسطين إذا استشهد أحد المجاهيد الناس يأتون معزين ومباركين بعيد المجاهد أي باستشهده فلهذا يغير تعبير الشهادة بالعيد، يشاؤك أهلك: عيدا و يذكر الشاعر الشهادة بتعبير أدق "الموت حرا طليقا" ثمّ وبتعبير رومنسي دقيق يعطي الماء والموت حزنا، الماء رمز للحيوية والحياة والأمل حزين على فقدان ذلك الشاب والموت نفسه حزين عليه.

نعم / عائدون، أجل ، عائدون /بلى /هلا... يا هلا!/ الى عرسنا ..أولا/ الى شمسنا ... أولا/ الى قدسنا ..أولا/هلا ... يا هلا/ بأبيض/ أسود/ اخضر/ أحمر/ طعام الشهيدة يكفي شهيدين/ والله أكبر؟ الله أكبر/ الله ...أكبر" (القاسم،١٩٨٤م:٩٥)

يدمج شاعرنا التفاؤل بالتشاؤم في موتيفه هذا في حديثه عن الشهادة وقد يزعم سميح أنهم عادوا فعلا، وأن القصيدة عبرت عن عودة حقيقية، وليس هناك من يجادله في هذا، ولكن القصيدة تشير الى أن العودة ليست عودة المنتصر. لقد تمت بين طرفين أملى القوي فيها شروطه.

عبّر سميح القاسم في شعره عن هويته الفلسطينية، وعن مشاعره إزاء وطنه، وهـذا الموقف لن ينفك عن الموقف القومي، والإنساني أبداً، ويحتوي عليهما أيضاً: «وذلك أن التشبث بالأرض هو حفاظ علي وجود إنساني يظل مرتبطاً مهما تعـددت صـور النظر إليه، بوجود قومي، هو المعني الذي يشير إليه التشبث بالأرض، وهذا الإفضاء مما هو وطني إلي ما هو قومي أعطي الشاعر الفلسطيني هوية واضحة فـي تنـاول الهموم الأساسية بصفتها مصيره الذي يواجهه في حياته تحت الاحتلال، وسلامه الذي يدافع به عن هذا المصير (كامبل اليسوعي،1966 ،517). التضحية للوطن لاتنفـكّ عن شعر سميح وقد«كان شعره يتّسم بالغضب والعنف ويواجه التحديات الكبيـرة منذ قصائده التي اتّسمت بالطابع القومي الى القصائد التي اخترقت دائـر القوميّـة للتعبير عن الجماهير الكادحة المسحوقة» (الاسـطة، د.ت،٧: ١٣٤)؛ «فعلاقتـه بالوطن تصل الى درجة التقديس، فالوطن وجسده وروحه ومهده وضريحه والوطن هو دم القتلى» (بزراوى، ٢٠٠٨، ١١٨)

الشهادة هي أسمى تضحية يقدم عليها الانسان فليس هناك أعلى من بذل الروح فـي سبيل قضيّة أو موقف. وقال الله تعالى :« ولا تحسبنّ الذين قُتلوا فـي سـبيل الله امواتاً بل احياءُ عند ربهم يُرزقون » (آل عمران: ١٦٩). فالشهادة أشرف أنـواع الموت وقد قال النبيّ الأكرم ﷺ: "أشرف الموت قتل الشـهادة" (مجلسـي، ١٣٦٣، ٦٧: ٨). واهتمّ الشعراء المعاصرون كأسلافهم بموضوع الشهادة والشهيد اهتمامـاً بالغاً وطبعاً بعد اندلاع الحروب في البلاد العربية والقيام و الثـورات وتضـحيات الابطال المسلمين. ويجسّد الشعراء في أشعارهم بطولة الشهيد وابتساله فـي قتـال الاعداء تجسيداً رائعاً كقول ابي تمام في رائيته الخالدة:

تَردَّى ثيابَ الموتِ حمراً فمَا أتى لها الليلُ إلاّ وهي من سُـندسٍ خضـرِ

(الخطيب، ١٩٥١، ٤: ٨٠ ـــ٨١)

نلاحظ في هذا البيت أنّ ابا تمام يستخدم اللون استخداماً مناسباً فالبطل الذي يسـقط مضرجاً بدمه في ساحة المعركة يظلّ اللون الاحمر الذي تضمّخ به جسده الطـاهر هو اللون المتميّز في النهار لاهل الدنيا ولكنّها تصبح زاهيةً خضراء مـن سُـندسٍ

وهي لباس الشهداء من اهل الخلود (القيسى، د.ت، ١٤٢ـــ١٤٣)؛ فالاخضر يدلّ على فصل الربيع مثلما يدلّ على الامل وبذلك تمثّل القصيدة باللون الاخضر مجالاً لإبداع خلود يوازى دورة الحياة والموت. إنّ الشهيد والشهادة من الكلمات المرادفة للموت ونرى كلمة الشهيد والشهادة بارزة في ديوان شعراء المقاومة وإنّ سميح القاسم هو شاعر المقاومة الشهير الذي نظم قصائد مختلفة في الدفاع عن وطنه فلسطين المغتصبة ومقارعة الغاصبين لها (طهرانى، ١٩٩٢، ٨٨)؛ فله مشاهد شعريّة رائعة عن الشهيد والشهادة وإنّ جبهة السفاح لاتعدلُ جبهة الشهداء بل إنّ نعل الشهداء أعزّ منها وأكرم بينما هو يذكّر بأبدع صورة أنّ دم الشهيد رسالة نبويّة فلنصلّ ولنسلّم على روحه الرفيعة (متقي،١٤٣٢ه.ق: ٩٨) حيث يقول:

وَلكَم وقفنا بالقبور وإنّنا نستلهمُ الشهداءَ إذ نَستَلهَمُ
ياجبهةَ السفاحِ لاتتشامخي نعلُ الشهيد أعزُّ منكِ وأكرمُ
ودمُ الشهيد رسالةٌ نبويّةٌ صَلّوا على روح الشهيد وسلّموا

(القاسم، ١٩٩٣، ٢: ٤١٥).

وفي قصيدة أخرى يتمنى أن يمتلك قدرة الشهيد:

أبي الغالي/ تطلّع مرة اخرى / لِتُبصر مرةً أخرى/ وَهَبني قدرة الشهيد (القاسم، ١٩٩٣، ٤٩-٤١٥-٤١٧).

إنّ موت الشهيد لا يجسّد فقط قيمة معنوية تذكي روح المقاومة بين الاحياء وتحفظ وجوده المستمر بينهم بما قدّم وبما ضحّى، بل إنّ جسده الذي هوى في ارض المعركة يتحوّل الى عتادٍ حربيّ صالح لاستعمال ماديّ جديد.وهذه الشهادة التي يقبل عليها المومن المخلص أمام اعداء الله وفي سبيل إرتقاء القمة الشمّاء التي لا يرقى الى الوصول اليها إلاّكلّ من صفت نفسه وصحت عزيمته على أن يكون المثال والقدوة بجرأة وثقة وتصميم على الوصول الى أهداف الامة؛ أليس عودتها إلى الاسلام حاجة ملحة من حاجتها؟ ولابدّ لهذه الحاجة من سعاة تجيش في قلوبهم غايات الامة سبل صلاحها لتحقق على أيديهما النقلة إلى المرحلة الجديدة التي فيها العزة لله ولرسوله وللمؤمنين (الساريسي، ١٩٩٦، ١١٢).

إنّ سميح القاسم يصوّر الام الفلسطينيّة الصابرة تقف صامدة في وجه المحتل تعلن التحدي ورفض الاستسلام حتّى بعد أن يسقط أبناؤها شهداء؛ فهو في موضوع الاستشهاد يكفر بالموت وينكره بل يراه عدم الاستسلام أمام الاعداء:

«تقدَّمُوا تقدَّمُوا / كلُّ سماءٍ فوقَكم جهنّمُ / وكلُّ ارضٍ تحتَكم جهنّمُ / تقدَّمُوا / يموتُ منّا الطفلُ والشيخُ / ولا يَستسلِمُوا وتَسقطُ الامُّ على ابناءِهَا القَتلى / ولا تَستسلِمُ (القاسم، ١٩٩١، ٣: ٤٠٥).

سقوط الأم على أبنائها الشهداء يعني متابعة الأم للأمور الجارية في القضية الفلسطينية ولقد نهضت المراة الفلسطينيّة تلبي نداء الوطن لتقف في وجه الاعداء وتشارك الرجل في النضال والكفاح فكان منهنّ الشهيدة أو إبنته أوأُخته أو زوجه وكان منهنّ الاسيرة التي قضت شبابها في السجن ومنهنّ من قدمن أرواحهنّ رخيصة فداء للوطن أو أقدمن على القيام بالعمليات الاستشهاديّة يفجرن أجسادهنّ ببني صهيون بعدَ أن كانت هذه العمليات حكراً على الرجال (سليمان ،٢٠٠٧، ١١٧). وفي قصيدة أشد من الماء حزنا يذكر الشاعر موتيفات عدة من الموت والشهادة: « أشدُّ من الماء حزناً/ تغربت في دهشة **الموت** عن هذه اليابسه/.. يؤجّلك **الموت** . تمسح جسمك بالزيت كاهنة/ من عاش يخسر سر الحياة/ ومن مات بات علي **الموت** حرا وحيا/ وما كان بالأمس عارا محالا/هو اليوم شأن صغير وجائز/فحاذر. وحاذر/... يؤجلك **الموت**. لكن **لموتي** جديدي على موعد الحب/والقنص.. في فرصة ثانيه/ وتبقي على الحاجز العسكري. سجينا حزينا/ أشد من السجن حزنا/أشد من السجن والماء حزنا.. »(نفس المصدر:٤١-٤٦)

يذكر الشاعر موتيف الموت ويقرنه بالشهادة حيث يقول: ومن مات بات على الموت حرا وحيا؛ وهذه شيمة الشهادة لا الموت وذلك أنّ الشهداء أحياء عند ربّهم يرزقون، ثمّ يستمر موتيف الموت–الشهادة إلى أن يؤجل الموتُ المجاهدَ لموت جديد أي: للشهادة؛ وكما تتبعنا حياة سميح القاسم أنّه صبر كثيرا على المفاوضات المتعجرفة وفجأة انفجر كالبركان:

لا سمرَ أن نطقَ الرمادُ الأبكُم تحتَ الرماد حرائقٌ تتضرّمُ

أنموتُ صمتاً حينَ الفِ جريمـــةٍ تنهالُ يا اهــلَ القبــورِ تكلَّمُــوا
فتفجري يــا صــرخةً مكتومــةً وتكســري يــا صــخرةً تــتكلّم
ولتَحشــدَ الــدنيا هنــا أحقادَهــا لترى الدمَ المســفوكَ يتبعــه دمُ

(القاسم، ١٩٧٦، ٤١٣)

يظهر لنا موتيف الموت والشهادة من خلال الدعوة إلى الكفاح وإلى الشهادة وذلــك بغضب عارم يدعو إلى القتال والكفاح فالموت هنا يسأل عنه الشــاعر وبــالأحرى يسأل عن سببه ويستشفُّ منه روح الجهاد في سبيل الوطن والحرية والكرامــة. إنّ الشاعر استطاع أن يكشف عن ممارسة الصهيونية بشتى الأشكال لقهــر الإنســان وتجريده من إنسانيته وإلقائها على هامش معناها بل بعيداً عنها. ولم يكن للشــاعر الفلسطيني خيار في توضيح ذلك. أن المعنى الإنساني الذي أضافه الشــاعر إلــى المعاني القومية ساهم إلى حد كبير في كشــف الصــورة للعــالم صــورة تجريــد الفلسطيني من أبسط حقوق الإنسانية، صورة الممارسات التي واجهها ذلك الإنسان ليبقى معزولاً عن إنسانية الحضارة الحديثة والمعاني السامية التي تنادي بها شعوب العالم.

ثمّ نلاحظ الشاعر لاينفك عن تذكّر الشهداء وقبورهم والحق أنّ قبورهم أعلام حــقّ يثبت أنّ الفلسطينيّين أصحاب الارض الشرعيّون وتتفاعل معها مظاهر الطبيعة من شجر وقمر وأمطار و... لتثبت هذه الحقيقة، نرى قبورهم أخذت تمثّل طوراً مــن اطوار الجهاد والصمود فهي تدعو الفلسطينيّين الى الاعتزاز والافتخار بهم وعــدم الرضوخ والذلّ للاعداء بل أخذت منحى الاستمرارية في المقاومة.لذلك لــم تكــن زيارة القبور لسكب الدموع والبكاء والعويل فقط وإنّما لإستلهام الشــجاعة والقــوة وتجديد العهد للشهداء حيث يقول سميح القاسم:

ولكَم وقفنا بالقبور وإنّنا نستلهمُ الشهداء إذ نستلهمُ

(القاسم، ١٩٩٣، ٢: ٤١٥).

ثمّ يستمر سميح بموتيف الموت و أنواعه وباستمرارية وجوده الذي لا مفــرّ منــه حيث يستدعي الآية الشريفة ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ

حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (سورة النساء: ٧٨) حيث يقول:

«يا موتُ هل كنتَ من أجلنا أم وُلِدنا لِأجلك / يا موتُ ...نطفتنا أنتَ أم أنّنا بعضُ اهلِكَ/ويا موتُ جرِّب نجاعتَنا في الحياةِ قليلاً إذا أنتَ أمهلتنا سنكرسُ لإسمكَ كلَّ الجوارحِ /ونكتبُ باسمكَ أحلى المدائحِ / تمهَّل ... لعلّ الحياة قليلاً لاجلِكَ أرقى وأنقى وأجمل/ تمهّل... تمهّل» (القاسم، ٢٠٠٥، ٩٥).

هذا النوع من الموت الذي يأتِ به الأعداء هو موتيف الشهادة والذي عبّر عنه سميح بالموت الذي يأتيهم وهذا هو الموت الهادم للّذات ومفرق الجماعات ياتي دون استئذان يطرقُ كلَّ الابواب لايترك وقتاً للتفكير أو الانتظار أو الاعتذار، سيف مسلط على رقاب العباد. وتجتهد الذات في تحويل مفهوم الموت من مجهولية المتافيزيقية الي معلوميّة الواقعيّة، ومن خلال ذلك يسعى الخطاب المباشر للموت الى تجريده ممّا يصاحبه من تضخيم للحس المأساوي. وهذه الطريقة في خطاب الموت تعطيه بعداً انسانيّاً تختفى معه كلّ ملامح الصراع التى يعبّر عنها شعراء الرثاء في كثير من الاحيان. ثمّ تتغيّر نظرة سميح عن الموت ويأخذ طابعا فلسفيا يناجي الموت وكأنّه ميّت أو بالأحرى أنّه يُعايش الموت بكل معانيه:

«ها انذا بعدَ موتٍ كبيرٍ/ أعودُ اليكَ قليلاً/ ثقيلَ الخطا عاقلاً مستحيلاً./ ها انذا بعدَ موتى اعودُ/ على جبهتى وصمتى/ والمشيب الذي وخط الصدغ كفارتي/ بعدَ موتٍ طويلٍ اعودُ» (القاسم، ٢٠٠٤، ٣: ٢٣٦).

هذه العودة وهذا الموت لايجب أن نأخذها بمعناها الظاهري لأنّ سميح لم يأخذها بمعناها الظاهري إنّه أراد بهذا الموتيف عبثية الوجود ويبرز الموت بالمعنى الفكري أوالفلسفي على أرضية التناقض أو الصراع الذي ينشأ بين الانسان ومحيطه العام ذلك الصراع الذى ينطلق أحيانا من روية ذاتية أو فردية تتعلّق بتفسير الواقع والحياة والوجود تفسيراً يجعل الشخصيات تمثّل صراعاً يعبّر عن حالة العجز والاغتراب وفقدان الهوية والياس، وعندئذ يبرز الاحساس بعبثية الوجود ولا معقولية الحياة وانعدام الغاية. لقد تغيّرت روية الشاعر وموقفه من الموت الذي

تضمنته دواوينه السابقة فقد كان الموت مرتبطاً بما يتعرض له شعبه تحت الاحتلال وما ترسخ في ذهنه عبر السنين التى شهد مآسي شعبه المتكرّرة على أيدي المحتلين. كان هذا النوع من الموت غير الطبيعي يعدّ اساساً لتشكيل موقف الشاعر من الحياة والموت فقد كان الشاعر يتحداه ويرفضه ويتمرّد عليه حين كان يكتب القصيدة المقاومة.

عَجَنَ سميح موتيف الموت والشهادة بالموروث الديني وبالكتب السماوية وقد وجد بعض الشعراء الفلسطينيّين المعاصرين في الموروث الديني ما يعينهم على تاكيد قضاياهم الفكريّة وقيمهم الروحيّة وبخاصة فيما يتعلّق بقضية الصراع العربيّ الصهيونيّ وتعميقها في وعي المتلقي ومنحها بعداً شموليّاً لذلك استغلوا من الموروث الديني المواقف الثوريّة التي وقفت في وجه الظلم والقهر. واستدعى سميح القاسم النص القرآني: «لام نون/ وضراعةُ روحي وعمادي في الحمأ المسنون/ والكفنُ الطالعُ من جلدِي/ والتابوتُ الطالعُ من جسدِ الزيتونِ والاسلافُ الموتى الاحياءُ الموتى/ والاحقادُ الآتون (القاسم، ١٩٧٣، ٢١).

يأتي الشاعر من بداية خلق الإنسان وهو كائن حي ويتناص مع الآية الشريفة في قوله في الحمأ المسنون ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ (سورة الحجر:٢٦) ثمّ ينتقل إلى موتيف الموت و ما يتصل به من كفن وتابوت وروح وجسد؛ كل هذه الإشارات ترتبط بتناص يُقرّب مفهوم الموت عند الشاعر وفي شعره تناص آخر عن الشهداء الأوائل والذين عبّر عنهم بالأسلاف الموتى الأحياء الموتى و هم الشهداء وهذا تناص مع الآية الشريفة: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (سورة آل عمران:١٦٩). وكما نلاحظ في أشعار سميح القاسم يكاد لاينفك عن ذكر الموت والشهادة تارة يُفلسف وتارة يهاجم وتارة ينادي وتارة يقاوم وتارة أخرى يُعايش الموت والشهادة.

النتائج

في الختام نصل إلى النتائج التالية:

- موتيف الشهادة والموت عند سميح القاسم تلوّن بلون البيئة الاجتماعية التي أحاطت بشاعرنا وهو من الشعراء المقاومين داخل فلسطين ونلاحظ الحيطة والحذر على موتيفات الموت وإن اتصفت بطابع المقاومة والصمود.
- تأكيد سميح على الشهادة هو الموتيف الرئيسي للموت في أشعاره.
- لجأ سميح في موتيف الموت إلى الرمز في بعض الأحايين وذلك بسبب قسوة الاحتلال.
- تفلسف سميح في موتيف الشهادة والموت وأخذ طابعا رمزيا وفلسفيا معقّدا عنهما وذلك للأسباب الاجتماعية والثقافية التي أحاطت بالشعب الفلسيني المغلوب على أمره.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم
- الاسطة، عادل(د.ت)، حماسة سميح القاسم والقصيدة العربية،الآثار الكاملة،مج
- بزراوي، باسل محمد علي (٢٠٠٨)، سميح القاسم: دراسة نقديّة في قصائده المحذوفة، نابلس –فلسطين.
- بلاوي وآخرون (٢٠١٢م) موتيف الإغتراب في شعر يحيى السماوي، مجلة العلوم الإنسانية الدولية، ايران، طهران، العدد١٩.ص٧٨.
- الخطيب التبريزي، (١٩٥١) شرح ديوان ابي تمام، تحقيق: محمد عبدعزام، القاهرة: دارالمعارف، ط٣.
- الساريسي، عبدالرحمن، (١٩٩٦) مقالات في الادب الاسلامي، عمان: دارالفرقان للنشروالتوزيع.
- سليمان، مسمح أيمن،(٢٠٠٧) الاتجاه الاجتماعى في الشعر الفلسطيني بين الانتفاضتين، غزة: الجامعة الاسلاميّة.
- الشامي، حسن (٢٠٠٧م) «مفاهيم أساسية في دراسة الموروث الشعبي الشفهي»، المملكة العربية السعودية، الرياض، مجلة الخطاب الثقافي–دراسات، جامعة الملك سعود، العدد الثاني.ص٢٩
- القاسم، سميح،(١٩٦٤) أغانى الدروب، الناصرة: مطبعة وأوفست الحكيم.
–القاسم، سميح، (١٩٧٣) الموت الكبير، بيروت وحيفا: منشورات دارالآداب.
–القاسم، سميح(١٩٧٨)، ديوان سميح القاسم، بيروت: دارالعودة.
–القاسم، سميح،(١٩٩١م)،(١٩٩٣م)،(٢٠٠٤م). الأعمال الكاملة، كفر قرع: دارالهدى.
–القاسم، سميح،(١٩٧٦م.) كلمة الفقيد في مهرجان تابينة،عكا: موسسة الاسوار.
–القاسم، سميح،(٢٠٠٥) ديوان ملك اتلانتيس، الدار العربية للعلوم، ط١.
–القيسي، نوري حمودي(د.ت)، شعرالحرب في العصرالعباسي، جامعة بغداد.

- كامبل اليسوعي، روبروت (١٩٦٦)، أعلام الأدب العربي المعاصر، بيروت: مركز الدراسات للعالم العربي المعاصر.
- طه، المتوكل(٢٠٠٤م) حدائق إبراهيم، لبنان، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات و النشر.
- طهراني، نادرنظام و واعظ وسعيد،(١٩٩٢) نصوص من النثروالشعرفي العصر الحديث، طهران: منشورات جامعة طهران.
- متقي، اميرمقدم، الشهادة والشهيد في الشعر العربي المعاصر، آفاق الحضارة الاسلاميّة،آكاديمية العلوم الانسانيّة والدراسات الثقافية، السنة الرابعة، العددالاول، ص:٨٥-١١٦، ١٤٣٢ق.
- مجلسي، محمد باقر،(١٣٦٣ش) بحارالأنوار، ترجمه: ابوالحسن موسوي همداني، طهران: كتابخانه مسجد ولي عصر.
- الملائكه، نازك(١٩٩٦)، قضايا الشعر المعاصر، المجلس الاعلى للثقافه.